

حينما يلتقي الفن والفلسفة

محسين الدموس

بين حقيقة الفن وحقيقة الفلسفة، تمنحي الحدود وتنقلص المسافات، وتنداعى الأسئلة إلى ما لا نهاية. إذا كانت حقيقة الفن تطارد المحتمل الهارب، وتتسلل إلى غياهب النفس البشرية، وتسعى إلى النفاذ إلى أقواع الجسد وقعور اللاوعي الإنساني، فما الحقيقة التي تبشر بها الفلسفة؟

قد تكون هذه الأخيرة ناجزة لحكمة العقل، كما عند أرسطو، أو شهوة عارمة كما عند أبيقور ولوكريتيوس، أو قد تكون مجارة للطبيعة وثورة في وجه الأعراف كما عند ديوجين وأشياعه الكلبين، أو هوسا بحلم "الإنسان الأعلى"، كما هو الحال عند نيتشه، أو إجراء عمليا لتقويض أصل الشرور "الملكية الخاصة"، كما عند ماركس...

المشترك إذن بين الفن والفلسفة جلي هنا، قد تتباين الدعائم وتختلف الوسائل، لكن المبتغى يظل واحدا. وهي طريقة أخرى للقول إن حقيقة الفن تتصل اتصالا وطيدا بالبعد "اللعبي"، الذي يلزم نفسه، ولا يطمع إلا في بهجته الخاصة. بينما تنوق حقيقة الفلسفة إلى "الجدية" التي تحد من "شطحات" الخيال، وتجعل "العقل" حجة قبل "ورود السمع".
يكن مبتغى الفن والفلسفة إذن في "قوة الاقتراح"، أي في السعي إلى "العوالم الممكنة"، التي تبشر بإمكانية الإنسان ترجمة "الطموح" إلى واقع، سواء كانت فاعليته تخيلا أم برهنة.

ليوناردو دافنشي: "السفوماتو" (1) أو الغموض الجميل.

من جمع بين عين الرسام وهندسة العالم ورؤيا الفيلسوف غيره؟ إنه ببساطة عبقرى فلورنسا الإيطالية: ليوناردو دافنشي. أذهل ليوناردو الإنسانية جمعاء بهذه المزوجة العجيبة بين "رؤية" العين، و"رؤيا" "البصيرة"، فحق له أن يحظى بنعت رائد "الولادة الجديدة" (2) فى أوروبا القرن الرابع عشر الميلادى. ومن العوامل التى ساعدت على بزوغ عبقرية ليوناردو أنه عاش فى فضاء وزمان أعليا من شأن الفن والفكر على حد سواء.

انتبهت أوروبا مبكرا إلى قوة الفن والفكر فى صناعة التاريخ، كما آمنت بجدوى حب الجمال فى تغيير منظور الإنسان لنفسه وللعالم المحيط به، ولذلك وضعت الحصان أمام العربة، وليس خلفها، كما فعل "العربان" فى زمن "البيترودولار". زد على ذلك حدة المنافسة بين عظماء ذلك الزمان (رافائيل/مىخائيل أنجيلو، وصاحبنا ليوناردو).

كانت هذه البيئة المحفزة بمثابة الوقود الذى ألهب خيال ليوناردو، وأجج فضوله الجامح، وقاده إلى اجتراف طرق بديلة فى تمثيل الفن، وإبداع الفرجة الخالدة. انخلود هنا ليس بالمعنى اللاهوتى، بل بالمعنى الذى اقترحه هانس رويبر ياوس فى نظرية "جمالية التلقى". تصير الأعمال الخالدة، تبعا للمنظر الألماني، تلك التى تستثير محفل التلقى، ولا تتواطأ مع قيم الثقافة السائدة، غير مهادنة للرأى العام، واعدة بأفق انتظار، يغير حساسية المتلقى نحو تمثل جديد للفن فى علاقته بالواقع.

لم يخترع ليوناردو الرسم، فهذه ممارسة قديمة لجأ إليها الإنسان البدائى لنقل هواجسه على الصخور وداخل الكهوف وعلى قماش متنقل. كما أنه لم يضيف جديدا لحوامل التشكيل. بالنسبة لعلوم عصره، لم يأت ليونارد بنظرية جديدة فى الهندسة، والتشريح وعلم النبات وعلم الأجنة. لقد تجسد التميز والأصالة فقط فى "الصنعة" الفنية، والجرأة الرؤيوية

على تكسير التكريس الفني السائد.

لم تعد اللوحة بضاعة كسائر البضائع، بل فنا متطلبا يحمل رؤيا معرفية خلاقة. الأساس عند ليونار، كما عند كل عظيم هو المنهج، أما حوامل الفن، فهي معروضة على الطريق، بتعبير أبي عثمان الجاحظ. لقد كانت إحدى استبصارات ليونارد المنهجية، بكل تأكيد "السفوماتو". لم تقصد هذه التقنية لذاتها، ولم تكن قط مجرد حذقة فنية تروم غاية جمالية محضة، وإنما كانت أداة "تشكيلية" تستشرف أفقا فنيا ينأى عن الوضوح، ويورط المتلقي في "الغموض الجميل"؛ الجدل بين تضاريس التشكيل و"تأطير الخطوط" ضمن "منظورات متعددة"، أي جعل البصر ينداح بين عمق اللوحة وحجمها.

يترتب عن ذلك، "التوهيم" الفني الذي يجعل "الموضوع ضبابيا وغير محسوس، لدرجة يسمو فيها الموضوع عن المماثلة، أو التطابق "المحاكاتي الصرف.

لم يتزحزح التشكيليون في فلورنسا زمن (كواتروسوتو) (3) على غرار رفايل، عن "جماليات الوضوح" قيد أمثلة. بالنسبة لليوناردو، وحسب بيانه عن التشكيل، "الوضوح" يغتال سحر الفن، أو على أقل تقدير، يحبط العين، ويجردها من الحق في الاستفهام.

على هذا الأساس توصل ليوناردو بـ "السفوماتو" لتضبيب ملامح الموضوع /الموضوعات، ما دامت هذه الأخيرة ليست سوى تعاقد بصري بحت. باللعب إذن على تدرجات الألوان، والتركيز على تموجات الإضاءة، بين الخافت والساطع، التضاد بين الظل والنور، يبرز "الموضوع" بشكل مغاير، واهبا عين المتلقي الحق في التقاط ما يشاء. يصير معنى العمل الفني موازيا لمعنى الحياة نفسها، عبر "الأثر" و"الكيفية" و"التأطير" و"المنظور" و"العمق" و"الخطوط" و"ثنائية الظل والضوء". بهذا "الإخراج"، حلق ليوناردو بعيدا عن سرب "الواقعيين"، ونجمهم الساطع ميخائيل أنجيلو، الذين شغفوا بـ "الموضوع" إلى حد

التطابق.

"السفوماتو أضع (يهودا الأستريوطي): La Cène "العشاء الأخير"

في جدارية "العشاء الأخير" (4)، يتساءل المشاهد تساؤلا مشروعا: أين يهودا؟ طبعا يحضر يهودا ضمن الحوارين، الحوارين الاثني عشر (5)، لكنه يختفي ويتجلى، يسطع ويخبو، يتوهج ويذبل. والسؤال لم كل هذا؟ في "العشاء الأخير"، كل شخصية/حواري تحظى بوضع رمزي مميز، وتراتبية حسب درجة القرب من يسوع، وحسب منسوب الورع والتقوى والفضيلة.

يحتل يسوع مستوى الوسط، فهو الفادي والمخلص والرسول الذي تنبأ: سيخونني

أحدكم. " L'un de vous me trahira".



وكان المعني بالخيانة هو يهودا بطبيعة الحال، ولذلك أسبغ عليه ليونارد طابعا مواربا لكي يظهر في أوضاع مختلفة: في اليسار، في الوسط، في اليمين، بشع أحمر الرأس. هذا الحضور المتعدد ليهودا، جعله كالطيف ينتشر في الجدارية، خاتما إياها بألغاز وأسرار وشفرات كثيرة.

هنا تنتصب الأسئلة التالية: هل كان ليونارد مهرطقا؟ هل كانت رؤيته ليسوع

مناقضة لرؤية الكنيسة الكاثوليكية؟ ألم يكن مبدع "السيدة السعيدة: الجوكاندا" هو صاحب الرأي السديد في تمثل طبيعة السيد المسيح، كما ذهب إلى ذلك دان براون في روايته البيست سيلر "شفرة دافنشي"⁽⁶⁾. من يستثيره الغموض، يشحذ همته، وينشط كفايته التأويلية لفك طلسم "الجدارية"، وحل شفرة الخائن الملعون "يهودا".

مفتاح التأويل إذن ثقافي، وليس معطى قبليا متاحا للجميع. وتأسيسا على هذا المعنى، يمكن القول إن شبح يهودا الذي تحس به، ولا تراه، المرئي وغير المرئي، الغائب والحاضر معا، هو صنعة "السفوماتو"، التي أنارت للإنسانية أن الخيانة والشر والجحود والنفاق مشاعر ليست بالوضوح الكافي كما يظن أغلبية العالمين.

كان العرف التأويلي، قبل ليونارد تبسيطيا، يرى الخيانة جلية كجلاء الشمس في كبد السماء، فجاء ليونارد وقلب المعادلة رأسا على عقب. الخيانة في جدارية العشاء الأخير، لم تعد بيضاء أو سوداء بل رمادية.

يحيل اللون الرمادي على التركيب، كما يحيل على التعقيد والهجنة. هو لون بقدر ما يمتزج فيه العمق والعتمة، بقدر ما يخلخل الأفكار والمعتقدات. ولذا، لم يكن الشاعر الفرنسي شارل بودلير ذاهلا عن مقاصد وآفاق الفن العظيم لما وصف ليونارد بـ"المرآة العميقة/المعتمة".

—Léonard à tout prix

حب ليوناردو عابر للأمكنة والأزمنة والعقائد. يمكن لهذا الحب مثلا أن يقود صاحبه إلى أداء 400 مليون دولار مقابل لوحة مشكوك في أصالتها⁽⁷⁾. قوس الغرابة يزداد امتدادا حينما نعلم أن المحموم بهذا العشق، ليس سوى ثري عربي مسلم، حيث العقيدة الرسمية التي ينتسب إليها تشجب كل أشكال التصوير أو التمثيل. أما ما يزيد الضغط على

الإبالة، فهو ثيمة اللوحة، التي تحيل على "الخلاص" بالمعنى المسيحي، وليس على شعار "الإسلام هو الحل".

ليس ذنبا أن يشغف عربي مسلم بحب المسيح، كما ليس نشازا أن يحظى فن دافنشي بالإعجاب، فالقرآن العظيم أوصى خيرا بعيسى بن مريم، وذكر اسمه أكثر من ذكر اسم محمد عليهما السلام، ونبي الإسلام في أحد أقواله المهمة اعتبر استبصارات الشاعر/طرفه بن العبد نوعا من النبوة.

المثلبة، كل المثلبة هي في حب الفن واحتكاره، في الولوج بالجمال واستثثاره للذات، وإغراق الآخرين في يم من الذمامة.
الهوامش:

1-Sfumato كلمة إيطالية تعني مزج الألوان

2-Renaissance في ملاحظة ثاقبة، ميز الراحل مهدي عامل بين "النهضة"، و"الولادة الجديدة". النهضة تعني نهضة الشيء ذاته، بينما الولادة الجديدة تفيد ولادة شيء جديد. انظر كتابه: "أزمة الحضارة العربية أم أزمة البرجوازيات العربية؟"، دار الفارابي، ط2، بيروت 1979، ص: 167

3-Quattrocento كلمة إيطالية تشير إلى القرن الرابع عشر الذي يعد الانطلاقة الحضارية الكبرى في أوروبا.

4-La Cène لوحة جدارية بقدر ما أسبغ عليها "السفوماتو" الإثارة الفنية، بقدر ما تكالبت عليها عوادي الزمن.

5-هم: بطرس/أندرياس/يعقوب/يوحنا/فيلوبيس/برتولوما/توما/متى/يعقوب بن حلفا/شمعون/يهودا أخو يعقوب/يهودا الأسخريوطي.

6-حققت رواية "شجرة دافنشي" نجاحا باهرا، حيث بيع منها أكثر من مئة مليون نسخة، كما تحولت إلى فيلم سينمائي ضخّم أضفى على الرواية بعدا تشويقيا معتبرا. كان يسوع حسب الجدارية والقيلم معا رسولا لا يرى مملكة الرب في المباني الباذخة، وإنما في دواخل الإنسان.

7-عنوان اللوحة: " Le Sauveur du monde ". بيعت في مزاد علني عام 2017 بنيويورك.